معاني الاستفهام في شعر جار الله محمود بن عمر الزمخشري- دراسة أسلوبية -

الدكتور: أحمد الشريف شطراح
قسم اللغة والأدب العربي
لمدرسة العليا للأساتذة – قسنطينة

الملخَّــص:

يتاسّس الاستفهام أسلوبا إنشائيا طلبيا على طلب الفهم، لكنه يتلون في الأدب بالوان الخطاب وأحواله، نحو البوح بانفعالات المتكلم، أو قصد الإقناع والإمتاع...، بما يتولّد من معانٍ مجازية متنوعة، إنكارا ، أو تمنيا، أو إقرارا وغيرها ، وتظلّ بنية الاستفهام محافظة على نسيجها بين الانفتاح والانغلاق في آن، حينها يتحول طلب الفهم إلى مصادرة له ، ومن هنا نحاول في مقالنا الاشتغال على هذا الأسلوب لهدفين هما:

1- فَتْحُ نافذة على شخصية الزمخشري الأدبية ، وقد عُرِفَ عالما لغويا ومفسر قبل ذالك .

2- تكشُّف السمات الأسلوبية التي يصطبغ بها التركيب الاستفهامي في شعر الزمخشري .

الكلمات المفاتح : الاستفهام - البلاغة - الشعر - الانزياح – الأسلوبية

Les sens de l'interrogation dans la poésie de Djar Allah Mahmoud ben Omar AL- Zamakhchari –Etude stylistique –

Résumé :

L'interrogation comme style constructif se fonde sur la demande de comprendre, ou une demande d'information ; cependant l'interrogation peut revêtir d'autres sens que lui confère le discours et cela selon les émotions de l'énonciateur, car il peut viser la persuasion ou l'abstention, ce fait crée dans le discours des tournures sémantiques différentes : réfutation, souhait, l'interrogation rhétorique.

La structure de l'interrogation reste fluctuante entre fermeture et ouverture en même temps, et cela peut donner d'autre sens au discours.

Dans le présent article on s'intéresse à l'interrogation dans le but de :

Présenter une interprétation sur la personnalité littéraire de AL- Zamakhchari connu jadis comme linguiste et commentateur.

Découvrir les Caractéristiques stylistiques qui se cachent derrière les constructions de l'interrogation dans la poésie de AL- Zamakhchari

Mots clés : l'interrogation, la rhétorique, poésie, stylistique

The Meanings of Interrogation in the Poetry of Jar Allah Mahmud Bin Omar Al- Zamakhshari : A Stylistic Study

Abstract:

Interrogation is based on an inquisitive style that requires understanding, but in literature, it is transformed according to the forms of discourse, towards the revelation of the speaker's emotions, or the aim of convincing or hiding….. creating various allegorical meanings, denial, hope, affirmation, etc. The interrogative structure keeps its texture between openness and closure simultaneously, while the request for understanding turns into a prevention from understanding. Hence, we try in this paper to work on this structure with two objectives in mind:

1. Opening a window on the literary personality of Al- Zamakhshari, who was previously known as a linguist and interpreter.
2. Revealing the stylistic features that characterize the interrogative structures in the poetry of Al- Zamakhshari.

Key words: interrogation, rhetoric, poetry, displacement, stylistics

مقدَّمـــة:

ألّف الزمخشري (ت538ه) في علوم الدين والتفسير، والحديث والفقه، وعلوم اللغة العربية، وعلم الكلام والأدب، وذكرت كتب التراجم ومختلف المراجع أن له نحو خمسين مؤلفا[1].

أما في الشعر فقد ترك ديوانا جمعه بنفسه استجابة لطلب صديقه ابن وهاس[2]. يحوي الديوان أكثر من أربعة آلاف بيتا من الشعر، ويشمل كل الأغراض التقليدية التي عرفها عصره؛ من مدح ورثاء، وشكوى وحنين، وفخر وهجاء، وزهد وغزل، وحكمة ووصف وغيرها.

وأمام شهرة الزمخشري لغويا ومفسِّرا ينزع المقال إلى تقديمه أديبا وشاعرا على وجه التحديد، وذلك باختبار أحد أساليب الإنشاء الطلبي في شعره، وهو الاستفهام.

وإذا كان الانزياح **(l'écart)**[3] لدى علماء الأسلوب يُعدُّ لونا مائزا للغة الشعرية؛ كونه يخرق طابوهات اللغة المعيارية، ويتجاوز المألوف منها إلى ما هو بديل عنها، بما يُوفِّره من عوامل التميز والفُرادة للخطاب والمخاطَب على حد سواء، فإلى أيّ مدى استجاب الزمخشري لذلك عبر أساليب الاستفهام؟، وهو الذي أبحر في علوم العربية شرحا للسنن المعيارية التي تحكمها.

يعدّ أسلوب الاستفهام أحد أساليب الإنشاء الطلبي في الجملة العربية، ويُؤدَّى بوساطة أدوات الاستفهام، وهي"الهمزة، وأم، وهل، وما، ومَن، وأيّ، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، و أيّان بفتح الهمزة وكسرها"[4]، أما أركانه أو مكوِّناته فهي: المُستفهِم، والمُستفهَم، وأداة الاستفهام، والمُستفهَم عنه.

وكثيرا ما لا يبحث المتكلم في هذا الأسلوب عن إجابة محددة؛ وإنما يهدِف إلى تصوُّر ما يتحدَّث عنه، فَيُخرجه من حقيقته إلى مقاصد شتى؛ لأنه يعلم بمضمون السؤال، فيطرحه ليحقق من ورائه وظيفة أخرى غير طلب الإجابة، تسهم في احتفاء نوع من الحركة الذهنية على الصياغة؛ فلا يصل المتلقي إلى الدلالة المقصودة إلا بعد القيام بِعدَّة حركات ذهنية تُفسِّر طبيعة العلاقات الغائبة، التي تربط بين ظاهر الصياغة والدلالة المجازية التي يمكن أن يتوصل إليها؛ إذ " كثيرا ما تتولد منه معاني مجازية بمعونة قرائن الأحوال، التي تتصل في مجملها إمَّا بالتعبير عن مواقف شعورية لدى المتكلم تعكس إحساسه بالأشياء، كالتمني والتحسر، والتعجب والاستبطاء، والاستبعاد والتعظيم، وإمَّا بإقناع المتلقي والتأثير عليه كالتقرير والأمر، والنفي، والإنكار، والتوبيخ، والوعيد، والتهويل، والتشويق ، والتهكم وغيرها"[5].

ويشكل الاستفهام في الدراسات اللغوية منحى أسلوبيا بارزا...، فهو يحمل في تركيبه دلالات تُمكِّن المبدع من التعبير عن أفكاره ومشاعره؛ إذ

يخرج عن وظيفة الاستخبار، ويتلون لغرض الكاتب أو السياق، فيكون للنهي والتحذير، أو التعجب، أو للتقرير، وغير ذلك، ويعدّ اللفظ والمعنى طرفيْ معادلة لتوضيح الدلالة، وتكمن أهمية الاستفهام في أنّ جملته التي تتحول في معناها إلى جملة أخرى منفية أو تعجبية أو إقرارية، تحافظ على دلالاتها، حيث يظل الاستفهام في نسيج البنية ...، وهذا يعني أنّ بنية الاستفهام البلاغي بنية مفتوحة ومغلقة في آن؛ أي طلب ومصادرة طلب[6].

وعبر معاينة أساليب التراكيب الاستفهامية في شعر الزمخشري لاحظنا أنها قد جاءت في مجملها مجازية؛ إذ لم ترد على سبيل الحقيقة لغرض التصديق، أو التصور، أو طلب خبر ما ليس معلوما عند المتكلم، ومن أنماطها:

أ ــ النمط الأول / الاستفهـــام بالهمزة:

أبرز البلاغيون واللغويون العرب في الدراسات الأدبية والقرآنية أن أدوات الاستفهام لا تتوقف عند المعاني الأصلية المنتهي إليها أسلوب الاستفهام الحقيقي والمتطلب إجابة محددة، بل قد لا يبحث عن إجابة محددة، وإنما يبحث عن تصور ما للمتكلم، فإذا كانت الهمزة تأتي طلبا للتصديق أو التصور، فإنها قد ترد لمعانٍ أُخَر عبر نسيج الاستفهام، وبهذا يخرج الاستفهام إلى أسلوب مجازي لا يطابق في دلالته المجازية الدلالة الحقيقية، فيصبح بمعنى الخبر، لا بمعنى الإنشاء...، وحين يخرج الاستفهام إلى أسلوب مجازي إنّما يؤدي ظاهرة جمالية وبلاغية لا تعرف في الأسلوب الحقيقي الذي يسأل به المتكلم عن شيء ما، أو عن معنى يفهم من السياق؛ ويتوجه فيه المتكلم إلى نفسه قبل أن يتوجه به إلى الآخرين[7].

إن قراءة هذا النمط من الأسلوب الاستفهامي في شعر الزمخشري يأخذ

القارئ إلى توخي معاني الخبر لا الإنشاء، من ذلك:

1 ــ التّقريــر:

يتجه الخطاب عبر التقرير إلى حمل المتلقي على الإقرار بمعنى من المعاني إثباتا أو نفيا؛ وهو لا يحتاج إلى جواب في الاستفهام المجازي؛ لأنه يقرر فكرة من الأفكار؛ وبمعنى آخر السؤال نفسه جواب ثابت. ويستعمل في هذا الأسلوب الفعل المنفي المسبوق غالبًا بهمزة الاستفهام؛ كقول الزمخشري[8] (الطويل):

أَيَــا طَالِبَ الدُّنْيَا وَ يَا تَارِكَ الْأُخْرَى ستَعْلَمُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَيُّهُمَا أَحْرَى(01-40)

أَلَمْ يَقْرَعُوا بِالْحَقِّ سَمْعَكَ؟ قُلْ: بَلَى وَذُكِّرْتَ بِالْآيَاتِ لَوْ تَنْفَعُ الذِّكْرَى(02-40)

فالهمزة إذا دخلت على نفي؛ " فالمنفي يُجاب فيه ببلى إنْ أُريد الإثبات، وبِنعم إن أُريد النفي"[9]، من حيث يخاطب الشاعر مَن يطلب الدنيا، وينأى عن طلب الآخرة بأنْ قُرع بالحق في أُذنيْه، ولم يسمع، وذُكِّر بالآيات، فلم ينتفع، وجيء بالوحدة المورفولوجية "بلى" ليجيب بها عن المنفي، فيؤكّده، ويثبت للمخاطَب فحوى الخطاب.

2. الإنكـــــار:

يبدو أنّ من أساليب الاستفهام ما ينبع من حالة التأمل المؤدية إلى الحيرة والتوتر، لِتتحوّل بعد ذلك إلى معانٍ تستدعي الحسرة والإنكار، كقوله شاكيا[10] (الطويل):

أَحَظِّيَ مَنْقُوصٌ وَ لَسْتُ بِنَاقِصٍ؟ وَكَمْ كَامِلٍ حَظاً وَ لَيْسَ بِكَامِلِ (17-25)

وَمَا الشَّأْنُ فِي هَذَا الْحَقِيرِ وَوَزْنِهِ وَلَكِنَّهُ اسْتِحْقَاقُ وَزْنِ الْفَضَائِلِ(18-25)

بحيث أتى الشاعر بجملة استفهامية اسميه، أُرِيد من ورائها الإنكار المُتْبَع بالنفي عبر الرابط " الواو"، فهو يشكو حالة التهميش وقلة الحظ "

أحظي منقوص"، مع انتفاء نقصه " لست بناقص" لإفادة التحسّر والإنكار، ففي هذا المقام من الأسلوب يقول عبد القاهر الجرجاني: " فإن بدأت بالاسم فقلت: أأنت تفعل؟، أو قلت: أهو يفعل؟، كنت، وجهت الإنكار إلى نفس المذكور"[11]، والكلام على هذه الشاكلة لا يلزم الاستفهام فحسب، بل يشمل النفي كذلك؛ من حيث ينفي النقص عنه، ويشكو نوائب الدهر.

وإذا ما دخلت الهمزة الاستفهامية على ما النافية أفادت الإنكار[12]، من ذلك قوله (الطويل):

أَما وقر الطّيْشَ الذّي فيك واعظٌ؟ كأنّك في أُذنيْك وَقْر ولا وَقْرا(03-40)[13]

إذ يستنكر الشاعر سكون طالب الدنيا على طيشه وخفّته بالرغم من نزلات الدهر، ووعظ الناس له، كأنه أصم وليس بأصم.

وفي السياق ذاته يقول الزمخشري (الطويل):

أَمَا يَشْعُرُ السُّلْطانُ عِزَّة ربِّه وذِلَّته إنْ مسَّ أَمْعَاءَهُ سَحْجُ؟ (49-14)[14]

إذ جاءت جملة الاستفهام مصدّرة بهمزة استفهام متبوعة بـ "ما" النافية التي حوّلت التركيب الإسنادي من الإثبات إلى النّفي على سبيل الإنكار، فالأسلوب" اختيار واعٍ يسلِّطه المؤلف على ما تُوفِّره اللغةُ من سَعَةٍ وطاقاتٍ"[15].

3 ـ التّسوية:

اختص أسلوب التسوية باستعمال (الهمزة) مع (أم) المعادلة؛ لأن الهمزة تستعمل للتسوية في الدلالة بين ما قبل (أم) وما بعدها، والجملة بعد الهمزة يصح حلول المصدر محلها نحو قول الشاعر(الطويل):

أأقْرن كان الْمرْء أمْ كان أَلَجا سواسيةٌ قُرْنُ الْأناسيّ و الْبُلْجُ(39-14) [16]

ويحضرنا في هذا المقام قول السيوطي بخصوص الاستفهام بالهمزة

مـــع أَمْ: " ألا ترى أن الطالب لفهم الشيء استوى عنده وجوده وعدمه أعني استواءهما في أصل الاحتمال"[17]؛ إذ يعادل الشاعر بهذا الأسلوب بين الرجل ذي الحاجبين المتقاربين أم المتباعدين، فهما سواء، الأقرن والأبلج، ولا فرق بينهما، لأنّ قيمة المرء بخُلُقه لا بخَلْقه[18].

كما دلّت جملة الاستفهام المرتبطة بـــ " أم" على التسوية، في سياق الرثاء لأستاذه فريد العصر[19](الطويل) [20]:

عَجِبْتُ من الْأشْجار تُورق بَعْدَ وَلا تَحْرِقُ الْأشجارُ أَغْصانَها الْخُضْرا(22-40)

أما أُخْبِرتْ أَمْ أُخْبَرتْ فتصبَّرتْ فتبَّـا لهـا لا أُلْبستْ ورقا نَضْـرا (23-40)

ففي حالتيْ إخبار الأشجار بموت أستاذه أم لا، ما كان لها أن تورق بعد مماته، فكأنّ حياة الطبيعة مرتبطة به، وكان على الأشجار أن تتوقف بعده عن الحياة والنمو، إذ نراه يوصل الاستفهام الإنكاري بأسلوب الدعاء عليها بالشرّ في قوله: " فتبًا لها لا أُلْبِستْ ورقا نضرا "، فقد يدفع الألم والحزن بالمبدع إلى البوح بالاستنكار عبر الاستفهام في صورة من الحسرة النابضة بالحركة على الرغم من الهدوء الناتج عن التأمّل، ويبقى الاستفهام مترجما لها وعاملا لشحذ الذهن والتفكير، ولاسيّما إن كان المخصوص بالسؤال غير عاقل (الأشجار).

وفي السياق ذاته يقول (الطويل):

أَمِنْ حجَرٍ صَلْدٍ فؤادك قَسْـوةً أَمِ الله لمْ يُودعْه لبًّا و لا حِجْرا ؟(04-40) [21]

فجمال الأسلوب ينبثق من شبكة العلاقات بين الكلمات، التي تؤسس للتسوية بين فحوى شطْري البيت، يبرع المبدع في نسج خيوطها لـــ" يثير في نفس المتلقي انفعالا وعاطفة "[22] حينما يسعى إلى التسوية بين ما قبل " أم" وما بعدها دون حاجة إلى ردٍّ أو جواب، بما يطرحه البيت من انسجام يتبدّى تماثلا وتقابلا بين شقيه؛ نوضّحه في هذا المقام – على سبيل المثال

لا الحصر– عبر الجدول التوضيحي الآتـــي:

الشطـــر الأول	الشطـــر الثانـــي	الانسجام
مركب اسمي	مركب اسمي	تماثـــل
مركب اسمي مُصدّر بالهمزة	مركب اسمي مُصدّر بـــــ"أَمْ"	تقابـــل
عدم مراعاة الرتبة اللسانية (مسند+ مسند إليه)	مراعاة الرتبة اللسانية (مسند إليه + مسند)	تقابـــل
مسند محذوف متعلق بشبه جملة	المسند مذكور	تقابـــل
المسند مفرد اسمي مثبت	المسند مركب فعلي منفي	تقابـــل
وجود مكمِّل للمسند إليه عبر التمييز	وجود مكمِّل للمسند عبر المفعول والمعطوف	تماثـــل وتقابـــل
خطاب الحضور(فؤادك)	خطاب الغيبة (يودعه)	تقابـــل

ففي صلب الانسجام الذي يحكم نسيج الاستفهام المجازي، يستمد الخطاب توازنه وحيويته عبر ما يُحدُثه من علاقات تحقيقا لغته الشعرية.

4– الـــتعجب:

وقد يكون الاستفهام متكأ يتكئ عليه الشاعر لغاية التعجب، إذ يرى فيه وسيلة قوية لإظهار نوع من الحوار الداخلي الذي ينتهي بإبداء عجبه كقول الزمخشري في الإخوانيات[23] (الكامل):

أَظَنَنْتُمُ أَنِّي أَخُونُ وَ بِئْسَمَا بِأَخِي الْحَفِيظَةِ وَ الْوَفَاءِ ظَنَنْتُمُ(2–312).

وَ اللهِ لَسْتُ بِخَائِنٍ عَهْداً وَإِنْ نَاقَضْتُم كُلَّ الْعُهُودِ وَ خِنْتُمُ (3–312).

ففي هذا النمط الاستفهامي عدل الزمخشري عن المألوف إلى دلالة التعجب، إذ يضمر الخطاب في مداره التواصلي حقيقة تداولية تكشف حسرة

وحزنا سببه سوء الظن من أقرب الناس إليه، وهو للأمانة يحفظ وبالعهد يفي، إذ "يستغل المتكلم الاستفهام لتحديد موقف معين له من السامع، قد يكون بتسليط النفي والإنكـــار على مضمون الاستفهام الذي يمكن للســامـــع أن يعتقد به، أو يُقدم على فعله، أو بتقريع السامع وتوبيخه لحمله على عدم فعله في المستقبل، وبهذا السلوك اللغوي ، يدخل السامع في مشاركة فعلية في إنتاج الجملة الاستفهامية، فيكون أكثر التصاقا بمضمون الكلام وأقوى فاعلية في استيحاء المعنى المراد "[24].

وهذا الأسلوب يجعل من البيت لحمة متكاملة الأجزاء، تشكّل همزة الاستفهام نواتها، من حيث إنها المبدأ والنهاية مدعومة بـــ" ظنّ " المتصلة بها، والمتكررة في نهاية البيت، ما يصنع دائرة مغلقة تضمّ فحوى الاستفهام وتختزله (سوء الظن)، وهي الدائرة نفسها التي تختزل عواطف الشاعر بين حسرة، وتعجب، وألم .

ويقول في مقام آخر (الطويل):

أفي أثـــر الْأَظْعان طرْفُك شاخص وقدْ شمّرتْ بالظّاعنين الْقلائص(01-02) [25]

إذ يعجب لموقفه من إتباع نظره في أثر المرتحلين، وقد ابتعدوا عن النظر تسوقهم نوقٌ مسرعة طويلة الأرجل، ويعد هذا البيت مطلع القصيدة التي يمدح فيها النبي (صلى الله عليه وسلم).

ويأتي الاستفهام ها هنا ليخرج عن المألوف، تعبيرا عن معنى غير مألوف، ومن ثم حدث نوع من التساوق والتلاؤم بين الصياغة التركيبية والمعنى المجازى المقصود، فإفادة الاستفهام للتعجب نوع من العدول اللّغوي الذي يستخدم فيه اللفظ في غير ما وضع له لإفادة معنى يُضاف إلى المعنى الحقيقي، " وتنبثق جمالية هذا الأسلوب من صورته النفسية المتحفزة لحدثٍ خارج الذات أو داخلها "[26].

ب- النمط الثاني / الاستفهام بـــ "هل":

نال الاستفهام بطريق " هل" مكانة مهمة، فبات ظاهرة أسلوبية بارزة في شعر الزمخشري، ولاسيّما أنها "حرف موضوع لطلب التصديق الإيجابي... [و] تخصيصها المضارع بالاستقبال"[27].

وقد عدل الاستفهام عن الحقيقة وتحوّل للدلالة على أغراض مختلفة أبرزهـــا:

1- التمنـــي:

ومن أمثلته قول الزمخشري[28](الطويل):

فهلْ تتلقــاني شفاعــة أحْمـــــــــــد وعفْو كريم للْإساءة ماحصُ؟(54-02)

وهلْ يكْشف الْكشّاف والْفائق الْعمى إذا تُلِيَتْ يوْم الْقضاء الْقصائصُ؟(55-02)

إذ يتمنىّ الشاعر أن تلحقه شفاعة الرسول الأمين، وغفران ربّ العالمين، ومنه جاء الاستفهام متضمنا معنى الاستجداء وطلب العفو والمغفرة، وانتقل تواصليا إلى همزة وصل بين المتكلم والمخاطب المعبّر عنهما بطريق الاسم "أحمد" و" كريم للإساءة ماحص" بين قوسي مطلبين عبر العطف، يحدد كل منهما وِجهة الخطاب الاستفهامي.

كما يتمنى أن يقف كتاباه " الكشّاف " و" الفائق في غريب الحديث " يوم القيامة، للشفاعة له، وتبيان حقيقة أمره، ويزيلان الضلال عن قلوب الناس يوم يقرأ كل فرد كتابه"[29].

وها هو يتمنى من الله أن يمدّ في عمره، وهو يتوجّه إلى مكّةَ، حيث ناجى نفسه في الطريق قائلا (الكامل):

هَلْ فِي قَضَاءِ اللهِ أَنِّي قَادِمٌ أُمَّ الْقُرَى فَإِلَى الْبَنِيَّةِ نَاظِرُ ؟(34-160)[30].

إذ وردت "هل" في سياق حوار ذاتي داخلي(مونولوج) أفصح به الشاعر عن مكامن نفسه، وهو ينشد الوصول إلى مكّةَ، ولاسيّما أنّ "هل" "حرف

موضوع لطلب التصديق الإيجابي، ما يبيِّن أن الشاعر استثمر المفهوم الذي ترومه الأداة "هل" لِيَعْدِلَ به نحو التحقق في الاستقبال (الإيجاب) عبر الرجاء والتمني، لأن" الأرجح في استعمال هَلْ أن... لا تأتي بعدها جملة اسمية إلا لغرض بلاغيّ كجعل ما سيحصل كأنه حاصل بالفعل"[31]

2- النفـــي:

قد يخرج الاستفهام عن معناه إلى الدلالة على النفي، من ذلك قوله راثيا (الطويل):

لَقدْ رَفع الْإيوانَ كِسْرى فَـــهَلْ حَمَى أَوَانَ أَتَاه الْمَوْت إيوانُه كِسْرى(14-40) [32]

أين ارتبطت "هل" بمعنى النفي القطعي لفحوى الاستفهام، وبخاصّة إذا ارتبط المقام بالماضي المعلوم والمرتبط بحال الحاضر؛ مفاده أنْ لا بقاء لغير الله، فهل خَلُد كسرى وبقي ما كان عليه؟ وكان الجواب: ما بقي.

وأردف مخاطبا القلم في سياق رثائه لأستاذه فريد العصر(الطويل) [33]:

وقلت لساري المـــنّ هلاّ بكيته وأنت الذي آخى أنامله العشرا (24-40)

فَقال: وَهَلْ أَبْقتْ لي اللّوعة الّتي تُنشِّف ماء الْبَحْر نيرانها قَطْرَا (25-40)

فأجابه متسائلا "هل أبقت...؟" وعدلت الجملة الاستفهامية هنا إلى معنى النفي، وتقدير الكلام في بنيته العميقة " ما أبقت اللوعة "، وبذلك يقرّ بجفافه وانتفاء عمله بعد موت رفيقه فريد العصر.

والطريف في الأمر أنّ الجملة الاستفهامية، قد وردت جوابا شافيا لـــ " هلاّ بكيته " وما تحمله من معاني الحثّ والتوبيخ، كما شكلّت ضربا من العدول عن الأسلوب في صلب العدول الاستبدالي (الاستعارة المكنية).

ويقول مفتخرا، ونافيا عنه طيش الشباب (الطويل):

وَهَيْهَاتَ هَلْ يَصْبُو ابْنُ سَبْعِينَ حِجَّةٍ وَقَدْ رَاحَ لِلْمَوْتِ الذَّرِيعِ مُشَارِفَا(25-93)[34]

إذ لا يعقل أن يحبّ ويعشق من بلغ السبعين، والموت أقرب ما يكون إليه، وما وقوع " هل" الاستفهامية بمعنى " ما " النافية، إلاّ تساوقا مع المقام ومقتضى الحال.

ج- النمط الثالث / الاستفهام بـــ "مـــا ":

كما قد ينزاح الاستفهام بـــ" ما " عن معناه الأصلي لإرادة معنى يقرّه السياق والحال، ومن أغراضها:

1- الإنكـــار:

من ذلك قول الزمخشري (الطويل) :

هُوَ الْملكُ الْحُقُّ الّذي الْمُلْكُ مُلكُهُ وما مُلْكُ عَبْد همّه الْبطْنُ والْفَرْجُ؟ (51-14)[35].

حيث اتّصل الاستفهام بمعنى التعجب، لامرئ لا همّ له في الدّنيا إلاّ بطنه، وإشباع غرائزه، ويتساءل: ما عمل العبد فيها وما ملكه، إن كان عبدا مملوكا لشهوات الدنيا وملذّاتها؟.

نفهم حينئذ المقصود من الكلام، ونقرأ المُتوارى، بأنّه إنكار يجري مجرى التوبيخ والتعنيف، ينقل الكلام من التواصل الآني والموجه لمخاطبٍ بعينه، إلى خطاب مطلق وعام على سبيل الحكمة و الموعظة.

2- الـــتعجّب:

قد يرد الاستفهام المجازي بمعنى التعجب، وممّا جاء منه قول الزمخشري (الطويل):

فَكَمْ قيلَ لِي: مَـــا بَالُكَ الْآنَ مُدْقِعاً وَقَدْ كُنْتَ أَغْنَى أَهْلِ بَيْتِكَ آنِفـــاَ (111- 93)[36]

وقعت جملة الاستفهام مقول قول سدت مسدّ نائب الفاعل، وفحواها تعجّب متكرّر عن انقلاب حال الشاعر من الغنى إلى الفقر المدقع، وبذلك عدلت الجملة الاستفهامية إلى معنى التعجّب والحيرة، ويبدو أنّ السؤال

متكرّر "كم" على فترات متزامنة " آنفا "، توضّح إيثار الشاعر على نفسه ولو كانت به خصاصة، ودليلنا قوله (الطويل):

وَوَفَّقَتِي حَتَّى وَقَفْتُ نَفَائِسِي وَأَعْلاقَ أَسْفَارِي فَأَبْرَحْتُ وَاقِفَا (113-93)[37]

كما يتعجّب الشاعر لحال امرئ همّه البُنيان، ليموت بعده، فيتمتع غيره به في قوله (البسيط):

مَا بَالُ مَنْ يَبْتَنِي قَصْرًا لِيَسْكُنَهُ عَدُوُّهُ وَهْوَ فِي غَبْرَاء مَلْحُودَهْ (03 -130)[38].

وفحوى التعجب إرشاد، ووعظ من اعتقد خلوده في الدنيا، وانصرف إليها، فبات مسكنه جهنّم، و بئس المصير.

د- النمط الرابــع / الاستفهام بــ "أين":

من الأساليب الاستفهامية التي خرجت عن معناها الحقيقي لتفيض دلالة و إثارة، الاستفهام بــ" أين"، ومن ذلك قوله مادحا صفي الملوك[39] (الطويل):

وَيَخْتَارُ أَسْنَاه لإِكْلِيلِ رَأْسِــهِ فَأَيْنَ الثُّرَيَّــا مِــنْ مَنَاظِــمِ دُرِّهِ؟ (22-87)[40]

فامتلاك الشاعر للغته الذاتية تجسد في حسّه المُدْرك طريقة توزيعه للكلمات في المواقع التي تشعرنا بوظيفتها البلاغية[41]، والمتجهة إلى المدح والتفخيم؛ إذ عبرّ العدول عن النمط الاستفهامي المعتاد، عن صورة مُفْتعلة قلبت موازين التشبيه من المشبه إلى المشبّه به" الثّريا "، فأصبح تاج الممدوح الأصل ومنبع التصوير، وما كان خيار الشاعر لأنْ يوضّح ويفصح إلا بالاستفهام " أين"، وذلك بعقد مقابلة تنافسية بين اثنين لا ثالث لهما، تتحقّق الأفضلية فيما اختير من درر وجواهر لتاج رأس الممدوح (صفي الملوك).

وعدلت جملة الاستفهام عن الوضع في قوله واعظا:

مِنْ أَيْنَ يُنْفِقُ فِيمَا لَيْسَ يَنْفَعُــهُ سَاعَاتِهِ الْمَرْءُ وَالْأَنْفَاسُ مَعْــدُودَهْ ؟(2-130) [42]

أين انزاح الاستفهام بـــ " أين " إلى التعجّب، ولاسيّما أنّه يتساءل ويحتار من موقف امرئ ينزف وقته في غير نفع، وساعات العمر معدودة.

وتتجلّى فاعلية هذا الأسلوب في ارتباطه بالنفي" ليس ينفعه" المفضية إليه الجملة المصدرية الظرفية الواقعة في محل جرّ، وخلوص الأمر إلى الحال "والأنفاس معدودة"، والمقصود الإقرار بمغبّة الوقوع في شرك الالتفات إلى الدنيا بملذّاتها وتناسي الهدف من الوجود، إذ " يصبح التشكيل الجمالي في إطار العلاقات اللغوية التبادلية نظاماً لغوياً فعّالاً يختلف عن مفهوم النظام اللغوي العادي "[43].

هـــ- النمط الخامس / الاستفهام بـــ "مَن":

ومّما جاء على هذا النمط قول الزمخشري (الطويل):

فَمَنْ لِاصْطناعِ الْفاضلين ومَنْ لهمْ إذا رَهبوا نابا منَ الدّهْر أَوْ ظُفْرَا؟(59-40) [44]

إذ عدل الأسلوب الاستفهامي عن معناه الحقيقي إلى معنى النفي، ونرى الكلام تساؤلا يعدم المتناول، ويثبت انتفاءه؛ فمن هو جدير بصنع الكرام بعد موت أستاذه ؟ ومن يساعدهم إذا خافوا حوادث الدهر بعده؟ .

ومن ثمّ يمكن القول إنّ إدراك المنافرة في العلاقات التأليفية تنطلق من معاينة السلسلة الكلامية التي تمثل درجة الصفر من المعيار النحوي للغة الاستفهام الطلبي، ثم الوقوف على مواطن التحول اللساني الذي يحمل المتلقي على معاينة مواطن الانزياح فيها.

وقد لاحظنا أن الزمخشري قد نوّع أساليبه الاستفهامية انطلاقا من الأداة التي تتصدّرها، وتولدت منها معاني مجازية بمعونة قرائن الأحوال، من حيث تنفتح على فضاء المبدع في أحاسيسه ومواقفه، أو تنشد التأثير في المتلقي، ومن ثم مثّلتْ هذه الأساليب سمة أسلوبية بارزة في شعر الزمخشري بما

تطرحه من قابلية للتواصل التأويلي،إذ لا يهتم القارئ بالجواب بقدر ما يجتهد في ربط وتأصيل الدلالة التي ينشدها الاستفهام المجازي.

الـــهوامش:

[1]– يُنظـــر: الزمخشري: ديوان الزمخشري، تحقيق: عبد الستار ضيف، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص.9

[2]– هو الشريف أبو الحسن عُلَيٌّ بنُ عيسى بن حمزةَ بن سليمان بن وهَّاس الحسني من شرفاء مكة كان عالما فاضلا وجوادا ممدَّحا، أكرم الزمخشري حين ذهب إلى مكة مجاورا، وبنى له دارا على باب أجياد. يُنظر: ديوان الزمخشري، ص.12

[3]– له مصطلحات أخرى مثل التجاوز(L'abus) لـــ فاليري (Valéry)، و الانحراف (La déviation) لـــسبيتزر(Spitzer)، والاختلال (la distorsion) لـــوالاك (Wellek) و فاران (Warren)، والإطاحة (la subversion) لـــبايتار (Peytard)، والمخالفة (linfraction) لـــتيري (Thiry)، والشناعة (le scandale) لـــ بارت (Barthes)، والانتهاك (Le viol) لـــكوهين (Cohen)، وخرق السنن (la violation des normes) واللحن(Lincorrection) لـــ تودوروف (Todorov)، والعصيان (La transgression) لآراقون (Aragon)، والتحريف (L altération) لـــجماعة "مو" (Le groupe "mu").

يُنظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط5، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، 2006، ص 79، 80 .

[4]– السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي): مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، 2000، ص.418

[5]– محمد صلاح أبو حميدة: البلاغة والأسلوبية عند السّكاكي (رسالة دكتوراه)، جامعة الأزهر بغزّة ، 2007، ص 157.

[6]– يُنظر: يوسف محمد الكوفحي: اللغة الإبداعية – دراسة أسلوبية لأعمال جبران خليل جبران العربية – ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2011 ، ص 55، 56.

[7]– يُنظر: حسين جمعة، جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، ص 143.

[8]– ديوان الزمخشري، ص 134 .

[9]– عبد السلام هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة،2001، ص19 .

[10]– ديوان الزمخشري، ص 99.

[11]– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، شرحه وعلق عليه ووضع فهارسه محمد ألتنجي، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1999، ص .103

[12]– علي توفيق الحمد، و يوسف جميل الزعبي: المعجم الوافي في النحو العربي، دارالجيل، بيروت، ص 69.

[13] – يُنظر: ديوان الزمخشري، ص 135.

[14]– المصدر نفسه، ص.65

[15]– المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ط5، ص.59

[16]– ديوان الزمخشري، ص.64

[17]– جلال الدين السيوطي: كتاب الأشباه والنظائر في النحو، راجعه وقدم له: فايز ترحيني، ج4، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، ص.72

[18]– ديوان جار الله الزمخشري، شرح فاطمة يوسف الخيمي، ط1، دار صادر، بيروت، 2008، ص89.

[19]– هو أبو مضر محمود أو منصور (على اختلاف الروايات) بن جرير الضبِّي الأصبهاني شيخ الزمخشري، قال عنه صاحب معجم الأدباء " كان وحيد عصره وأوانه في علم اللغة والنحو والطب ": يضرب به المثل في أنواع الفضائل، أقام في خوارزم مدة، وانتفع الناس بعلومه ومكارمه وأخلاقه، وتخرّج عليه جماعة في اللغة والنحو منهم الزمخشري... يُنظر: ديوان الزمخشري، ص76.

[20] – المصدر نفسه، ص .135

[21]– المصدر نفسه، ص 134.

[22]– يوسف محمد الكوفحي: اللغة الإبداعية، ص.56

[23] – ديوان الزمخشري، ص .580

[24]– محمد صلاح أبو حميدة: البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، ص160.

[25]– ديوان الزمخشري، ص.29

[26]– حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء، ص.153

[27]– ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: حنا الفاخوري، ج1، ط1، دار الجيل، بيروت، 1998، ص.563،562

[28]– ديوان الزمخشري، ص.34

[29]– ديوان جار الله الزمخشري، شرح فاطمة يوسف الخيمي، ص.327

[30]– ديوان الزمخشري، ص.341

[31]– عبد السلام هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ص.20

[32]– ديوان الزمخشري، ص.134

[33]–المصدر نفسه، ص.135

[34]– المصدر نفسه، ص.211

[35]– المصدر نفسه، ص.65

[36]– المصدر نفسه، ص.218

[37]– المصدر نفسه، ص.218

[38]– المصدر نفسه، ص.283

[39]– هو أبو علي محمد بن أرسلان أحد كبراء دولة السلطان سنجر، ومن ألقابه منتجب الملك وصفيّ الملوك. يُنظر: ديوان الزمخشري، ص .89

[40]– ديوان الزمخشري، ص194.

[41]– حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء، ص152.

[42]– ديوان الزمخشري، ص283.

[43]– حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء، ص160.

[44]– ديوان الزمخشري، ص137.